العنوان:	الغناء والتسلية الشعبية بسلا خلال القرنين 18 و 19
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	السعديين، محمد
المجلد/العدد:	مج 20, ع 39,40
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2012
الصفحات:	139 - 155
رقم MD:	410961
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	المرأة المغربية ، سلا ، المغرب ، الموسيقى العربية ، الغناء ، الاغانى الشعبية ، القرن التاسع عشر ، القرن السامن عشر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/410961



الغناء والتسلية الشعبية بسلا خلال القرنين 18 و19

محمد السعديين*

تمثل الموسيقى والغناء والتسلية الشعبية حقلا هاما من حقول البحث التاريخي بما يتيحه من فهم لبعض ضوابط المجتمع وميكانيزماته. كما أنه يغري الباحث بصورة أفيد لما يحمله من الدلالات على مدى دسامة الإرث الحضاري لهذه المدينة أو تلك. بيد أن الخوض فيه يكتنفه شح المادة المصدرية، باعتبار أن المؤرخين القدامى التزموا الصمت عن الحديث عن مثل هذه المواضيع وكأنها تدخل في عداد المسكوت عنه. ومع ذلك، ينبغي عدم التسرع في إصدار حكم نهائي عن المؤرخين السلاويين مادامت كثير من مؤلفات ابن علي الدكالي في حكم المجهول[1] وما دامت نسبة هامة من الإنتاج الفكري لبلدييه حبيسة الخزانات الخاصة. وقد انبرى المرحوم محمد الفاسي لإماطة اللثام عن فن الملحون وأعلامه بسلا[2]، إلا أن مهمة الباحث تصير أصعب فأصعب كلما حاول الرجوع إلى ما قبل القرن التاسع عشر.

وسنحاول في هذا العرض المتواضع، وفي حدود الإشارات المتوفرة، إبراز مدى اهتمام أهل سلا بالموسيقى والغناء خلال الحقبة التاريخية المشار إليها والوقوف على المكانة التي تبوأتها التسلية الشعبية في المجتمع السلاوي.

---

* أستاذ باحث- فاس.

[1]- عن مؤلفات ابن علي الدكالي السلاوي المجهولة المظان، انظر: ابن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز، تح. مصطفى بوشعراء الرباط، المعارف الجديدة،1996، مقدمة التحقيق،.ص. ص: 8-10.

[2]- محمد الفاسي، شعراء الملحون السلاويون، المناهل،1985،العدد 33، ص.ص.7-34.

عراقة الموسيقى والغناء بسلا

من يتتبع أخبار بدايات "سلا الحديثة"[3] يجد ذكر أبي الحسن علي بن الحمارة الغرناطي[4]، تلميذ ابن باجة -إمام التلاحين الأندلسية- الذي دخل سلا بعد سنة 1029/420-1030م واتصل بقاضيها أبي العباس بن القاسم بن عشرة[5]، كان ممن برع في الألحان وعلمها[6]. ويبدو أن مدينة سلا نالت في هذا الوقت المبكر من تاريخها نصيبها من ذلك، مما يفيد بأن الموسيقى عريقة بسلا عراقة هذه الحاضرة نفسها. وقد سطر ابن علي الدكالي السلاوي في إتحافه الوجيز هذه الملاحظة حيث أشار إلى أن بلدييه كانوا يحسنون علم الأغاني وضرب العود وغيره من آلة الطرب[7]. وتجدر الإشارة إلى أن شيخه أحمد الناصري – صاحب الاستقصا- قد ألف رسالتين في فن الموسيقى بحث في إحداهما في النغمات العربية والمقابلة بينها وبين الموسيقى العجمية[8]، الأمر الذي يؤشر على أن الموسيقى لم تغب عن أذهان علماء سلا وساكنتها بصفة عامة. ولا ننسى أن الطبيعة الأخاذة لمدينتهم والمتمثلة في سيادة البساتين المزدانة بالأزهار والرياحين، كانت توحي بجو الطرب والغناء. ويمكن رصد ذلك من خلال الأشعار الكثيرة التي نظمت في جمالها الطبيعي[9].

---

[3]- نميز بين"سلا الحديثة" التي تأسست بين شاطئ البحر ومصب نهر أبي رقراق أواخر ق.10/4م و"سلا القديمة" التي كانت بجوار عين إسمير قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام والتي اشترك في تأسيسها عنصران: بنو عشرة وبنو يفرن الزناتيون.

انظر:- مجهول ، الاستبصار، تح: سعد زغلول عبد الحميد، ط2، الدار البيضاء، 1985، ص:140.

[4]- كان علي بن الحمارة من الأدباء والشعراء الذين حلوا بسلا من أجل تقديم التهاني للعشريين بمناسبة تشييد قصر الطالعة بها.

أحمد الصبيحي، أنموذج في تاريخ سلا،مخ. خ. الصبيحية بسلا،رقم 435، ص.ص: 3-5

محمد بنشريفة، أسرة بني العشرة،تطورها التاريخي ودورها الحضاري، مجلة البحث العلمي، 1967، عدد 10، ص: 76.

[5]- أحمد بن علي بن القاسم ابن عشرة هو باني قصر بني العشرة بحي الطالعة بعد 1030-29/420. امتدت حياته إلى ما بعد سنة 1122-1121/515.

انظر: الإتحاف الوجيز، م.س ص.ص.72-73.

[6]- محمد المنوني، تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب، مجلة البحث العلمي، 1969، العدد 14-15، ص.150.

[7]- الإتحاف الوجيز، م.س، ص: 42.

[8]- أحمد الناصري، الاستقصا، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1956، ج.1، ص: 32.

[9]- نجاة المريني، مدينة سلا في ذاكرة الشعراء، ضمن، سلا ذاكرة وحضور، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،1999، ص.ص.17-27.

وينبغي أن نستحضر كذلك الدور الروحي للموسيقى باعتبار أن أهل سلا عرفوا بورعهم وشدة تدينهم. ألم يكن أرباب الطبول والمزامير يصبحون كل يوم يضربون أمام باب الشيخ عبد الله بن حسون النوبات الموسيقية[10]؟ ألم يواكب الاهتمام بالاحتفال بعيد المولد النبوي بسلا تطور الموسيقى لكون السلاويين دأبوا على عزف بعض الألحان، لاسيما خلال حفل موكب الشموع[11]؟ إلى جانب الدور الروحي الذي أنيط بالموسيقى، فقد ظلت تمارس دورها الطبيعي في خلق أجواء الرفه والأنس. ومن الأمثلة الدالة على ذلك الحضور الملفت للطبول والمزامير وغيرها من الآلات الموسيقية بمناسبة استقبال أهل سلا السلاطين والسفراء والمجاهدين البحريين. ونشير في هذا الصدد إلى أن الأسرى وغنائم الجهاد البحري كانوا يعرضون في دار معدة لذلك تزورها العامة والخاصة وتضرب الطبول والمزامير وآلات الطرب فرحا بالرئيس واحتفالا به. أما الدار المذكورة فتقع في باب احسين، مجاورة لمسجد المريني. ولعلها- اليوم- دار الأشراف الكتانيين[12]. تجسد هذه الصورة والتي كانت تتكرر أيام أوج الجهاد البحري شغف السلاويين بالموسيقى والطرب .

الموسيقى والغناء بسلا خلال القرنين 18 و19

ونحن إذا أردنا أن نقف على تطور منحنى اهتمام أهل سلا بالموسيقى والغناء خلال القرن الثاني عشر/18م ،فإننا نلاحظ أن المصادر لم تول أهمية كبرى لهذا الجانب. ومن حسن الحظ أن بعض السفراء الذين زاروا مدينة سلا قد أمدونا بمعلومات مفيدة عن ذلك. ومن هؤلاء نجد المهدي الغزال الذي قدم تفاصيل دقيقة عن الاستقبال الذي خص به أهل سلا أعضاء السفارة التي بعثها السلطان محمد بن عبد الله عام 1766 للقيام بمهمة لدى ملك إسبانيا كارلوس الثالث من أجل تحرير

10- م.القادري، نشر المثاني، تح. م. حجي وأحمد التوفيق، الرباط، مكتبة الطالب، 1986،ج.1، ص: 130.

11- ابن علي الدكالي ،نبذ من تاريخ سلا، مخ.، خ.ص، رقم 534، صفحات غير مرقمة.

Loubignac(V) , La procession de cierges à Salé , in Hesperis, 1948,p.p.5-30.

12- جعفر الناصري، سلا ورباط الفتح: أسطولهما وقرصنتهما الجهادية، تح: أحمد بن جعفر الناصري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 2007، ج.5، ص: 60.

الأسرى وتبادلهم وعقد معاهدة صلح[13]. وقد اعتمد الغزال في وصفه على المعاينة حيث يقول:"وعبرنا المدينة[سلا] بين صفوف من الخلق مع النوبة وغيرها من آلة الطرب... وكانت إقامتنا بسلا يومين"[14].

إن ما يهمنا من هذا الوصف هو أنه يبرز ضخامة الاستقبال وأبهته، فضلا عن كون عنصر التلميح إلى تعدد الآلات الموسيقية التي كانت تصدح فرحا بأعضاء الوفد يبقى إشارة بليغة إلى ولوع السلاويين بالموسيقى والطرب وباعهم الطويل في هذا الفن، بل إن ما يميز سلا عن الحواضر المغربية الأخرى أنها كانت مهد السماع[15].

كما قدم الضعيف أحد المشاهد التي تجسد ذوق السلاويين الرفيع في الموسيقى والغناء وذلك بمناسبة تعويم سفينة جديدة يوم الجمعة 13 جمادى الأولى 13/1229 ماي 1814 حيث "صنع القائد عشعاش تسعة طيافر من الطعام وبعثها لهذه السفينة وتتره الرباس بالآلة"[16]. إن عدد "الطيافر" المذكور يبرز بجلاء كثرة المحتفلين وأجواء المرح التي كانت تخيم عليهم بالمناسبة المشار إليها. وبالطبع، فإن هذا المشهد كان يتكرر أيام ازدهار صناعة السفن بأوراش ميناء سلا. وتذكرنا هذه الأجواء بعادة استجمام السلاويين بعين إسميروجنات مطانة وغيرها[17]. ولا نستبعد حضور الموسيقى والغناء في هذه المناسبات.

وبعيدا عن أماكن الاستجمام، نشير إلى ظاهرة المجالس الخاصة حيث لم يكن يهود سلا الذين عرفوا بالإقبال على حياة الأنس والمتعة يترددون في استقبال –ولو خفية– فئات من الشبان المسلمين الراغبين في حياة السلو والمنادمة وسماع الموسيقى في بيوتهم[18]. ولا ندري هل كان الشبان السلاويون المسلمون يقومون بدورهم باستضافة جيرانهم اليهود من أجل نفس الغاية.

---

[13]- المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد، في المهادنة والجهاد، تح: إسماعيل العربي،الجزائر، المطبوعات الجامعية، 1984، ص: 224.

[14]- نفسه، ص: 227.

[15] - Alaoui Ismail et autres, Salé cité millénaire, Editions Eclat, 1997, p:150.

[16]- الضعيف، تاريخ، تح: م. البوزيدي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1988، ج. 2، ص: 711.

[17]- الإتحاف الوجيز، م.س، ص: 58.

[18]- محمد زنيبر، سلا ومكناس في الماضي، ضمن المغرب في العصر الوسيط، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة،1999، ص: 324.

ولعل المتفحص لأخبار الموسيقى والغناء يدرك ما وصل إليه فن الملحون[19] من ازدهار في سلا. وعد المرحوم محمد الفاسي هذه المدينة من أخصب البقاع لظهور شعراء الملحون إلى جانب مراكش وفاس ومكناس وازمور[20].

وما يسترعي الانتباه هو أن بعض فحول شعراء الملحون الذين ينتمون إلى مناطق مغربية أخرى نبغوا في سلا، كما هو شأن عبد السلام الشرقاوي-أصله من أبي الجعد- الذي عاش في أيام السلطان محمد بن عبد الله وصدرا من عهد المولى سليمان وهو المعني في قول شيخ الملحون الجيلالي مثيرد-معاصره- "رايس الفرسان سلاوي"[21]. وكان من الطبيعي أن يلتفت هذا الشاعر إلى أبرز صلحاء مسقط رأسه، أبي عبيد الشرقي في إحدى قصائده حيث يقول في حربتها :

أزاير العمري   جل في أشعاري

وتأمل في مديح سيد أسيادي

أبو عبيد الأفضل   من عرب قريش فاض نيله

ولد الفاروق سيدنا عمر[22].

ويبدو أن صلحاء سلا نالوا نصيبهم من أشعار عبد السلام الشرقاوي، إلا أننا لم نقف على شيء من ذلك، شأنه في ذلك شأن ابن عمرو السلاوي الذي عاصر المولى يزيد (1204-1206/1790-1792)[23]، و بوعزة ولد بقالة الذي كان في مطلع القرن 19/13 من أشياخ الملحون بسلا[24] وعلال السدراتي ومحمد بن الحاج عبد الغني بلحسن المتوفى في 02 ذي القعدة 24/1273 يونيو 1857. وقد وصف هذا الأخير في

---

[19]- يعد الملحون أو ما يعرف بالموشحات والزجل من بقايا الموسيقى الشرقية العربية المتأثرة بمؤثرات إغريقية وفارسية، والتي خضعت لتطوير متواصل على يد الأندلسيين وضعا ولحنا.

انظر، إبراهيم حركات، الحياة الاجتماعية في عصر بني مرين، مجلة كلية الآداب، الرباط، 1979، العدد5-6، ص: 47.

[20]- م.الفاسي، شعراء الملحون السلاويون، م.س، ص: 8.

[21]- نفسه، ص: 9.

[22]- نفسه.

[23]- نفسه.

[24]- الإتحاف الوجيز، م.س، ذيل، ص: 266.

قصيدته التي تحمل عنوان "الجهادية" أو "السلوانية"[25] آثار العدوان الفرنسي على مدينة سلا سنة.1851/1268 ونشوة فرح سكانها بما حققوه من نصر، وحربتها:

آبن حسون آفارس لعناية سلطان اسلا أنت وسيدي بنعاشر
آبلاد لمجاهدين والله ابلادكم لا دخلوها كفار

ومنها:

هدوه آبحرب شديد،بعد جانا بشقوف النار
ولقاوه هل ليمان بالمدافع والكور حتى ادهاو لكريه الداسر
طاح أعلام وتشتت ألواح معمي البصار[26]

وتعتبر "السلوانية" وثيقة تاريخية هامة، فبالإضافة إلى كونها وصفت بدقة العدوان المذكور وشجاعة السلاويين في مواجهته، فإنها قدمت لوحة مفصلة عن كثير من صلحاء سلا الذين تم التوسل بهم لدرء خطر المعتدين. ومما جاء فيها:

صلاح سلا لاسياد نمجد هما احجابنا ويقهر بالطغيان
مول الكمري سيدي امحمد ونقول لمفضل امير الشجعان
والطالب فيه كثير نمجد ودا بحدتكم أسيادي ظمان

....

هداك انهار الصالحين حضروا من كل امزار

....

سيدي بلعباس لهمام عز المسكين واللي يكون في البحور آمسافر[27]

---

[25]- انظر نص القصيدة عند أحمد معنينو، الغارة الفرنسية على مدينة سلا عام 1851/1268 من خلال قصيدة الملحون، مجلة البحث العلمي، 1985، العدد 33،ص.ص: 203-218.

[26]- نفسه، ص: 207.

[27]- ن.م.س، ص.ص: 208-209.

تعكس هذه النماذج أهمية الملحون بالمجتمع السلاوي، الأمر الذي يفسر ازدهاره فيما بعد أي خلال عهدي السلطانين المولى عبد الرحمان ومحمد بن عبد الرحمان، وهي الفترة التي يطلق عليها رجال الملحون "وقت صابة الأشياخ"[28].

ويلاحظ المتتبع لحرف سلا، أن محلات الصناع كثيرا ما كانت مسرحا لإبداع وإنشاد الشعر الملحون، بل إن أغلب المنشدين نشأوا في مناخ الصناعة أمثال محمد الشليح البناء وبوعزة الدريبكي ولد بقالة الخراز والحاج المامون بن نصر العلوي الدباغ ومحمد البري الدراز[29]. والملاحظ أن كثيرا من شعراء الملحون السلاويين وغيرهم اشتغلوا بمهنة الحياكة حيث "كان سير الترق في المنسج يوحي إليهم مع استعدادات أخرى إيقاع الميزان في أنفسهم"[30]. وتجدر الإشارة إلى أن لغة الملحون تنطوي على العديد من الوحدات المعجمية ذات الأصل الحرفي نحو "المرمة" و"القياس" و"خيط" بمعنى نظم الشعر، و"زيواني" نسبة إلى لون أصفر تعرف به "البلغة"[31].

وفيما يخص مواضيع الملحون فهي متنوعة، وتعد قصيدة "القلب" إحدى أشهر قصائد محمد البري، وهي في الحكم وحربتها:

من كرهك يا لقلب كرهوا   واش بك انت امسيدو
من بالك غير حيدو   خليه علا اهواه
لا تدخل أسواق المعاندة

ومنها:

إلى كان نواح طلبة   غيوانك غير بعده

---

[28]- م. الفاسي، شعراء الملحون السلاويون، م.س، ص: 12.

[29]- الحاج محمد البري من أجل شعراء الملحون السلاويين خلال ق19/13 وطرازه مازال معروفا قرب باب سبتة بجوار مسجد الموقف بسلا.

[30]- م. الفاسي، شعراء الملحون من أهل مكناس وزرهون، مجلة المناهل، 1983، العدد27، ص: 10.

[31]- عبد الوهاب الفيلالي، القيمة الاقتصادية لفن الملحون بين محاولة التحسيس وإمكانية التفعيل، جريدة العلم، الملحق الثقافي، 22-12-2001.

المعوج بيد نسكده و مع طبعي نكاده

لمدرقني بخيط بحيط نسدل تنافده

وعلى حافة تسنده[32].

وتعالج قصائد أخرى مواضيع تهم التوسل بالصلحاء كقصيدة البري التي طالما رددها السلاويون والتي يقول في مستهلها :

يا من لا يسها أو لا ينام فملكو يا دايم لبقا وجهنا للخير

واغفر يا مولاي زلتي بنبيك الصادق معا آلو

.....

وأنا كيف تكون ساعتي يوم أرواح لبيت قبري واسالو

ذنبي قد الأرض و السما والبحر المحيط غايتو والله به خبير[33].

كما عالجت مواضيع أخرى كالنزاع بين الحرفيين وموضوع المرأة الوارد –مثلا- في قصيدة البري "جمهور البنات" والتي يقول فيها:

عقلي فالسالبات عقلي، كحلات العين والحواجب

وين أما ريتهم نتضرع دون هوايا[34]

ونجد كثيرا من القصائد تحمل أسماء نساء مثل "زهرة" و"طامو" و"خدوج" وغيرها، مع العلم أن من عادة بعض شعراء الملحون إطلاق أسماء الغادات على بعض روائعهم.

يبدو بوضوح أن مدينة سلا حاضرة الملحون بامتياز، باعتبار أثر الشعر والموسيقى الأندلسية وما ترتب عنها من محاولة تطويعهما وجعلهما مادتين شعبيتين[35].

---

[32]- اقتصر محمد الفاسي على إيراد الحربة، أما باقي أبيات قصيدة القلب فقد أمدني بها –مشكورا– السيد الكحيلي، العامل بحمام الشليح بسلا.

[33]- أورد القصيدة عبد الله شقرون في كتابه: فن الملحون في مدينة سلا، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2009، ص: 20.

[34]- ن.م.س، ص: 22.

[35]- عبد الرحمان الكرومي، فن الملحون بسلا،ضمن ذاكرة مدينة سلا 1912-1956، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2010، ص: 190.

الغناء والحلقة

لم تكن تخلو الحلقات أو "الحلاقي" حسب التعبير العامي من الغناء، إلا أن اللافت للانتباه هو أن مدينة سلا بالرغم من وقوعها بين العاصمتين التقليديتين: فاس ومراكش واللتين اشتهرتا بالمجالس الترفيهية التي تعقد في الساحات العمومية، فإن مصادرنا تلوذ بالصمت عن ذلك بالنسبة لسلا. ويكفي أن نشير إلى أن الحسن الوزان قد أرخى العنان لقلمه عند حديثه عن فاس ليقدم وصفا في منتهى الدقة لجو الطرب والغناء وغيرهما بهذه الحلقات[36]. بيد أنه عندما زار مدينة سلا سنة 914/ 1508 فإنه لم يعر أي اهتمام لهذا الموضوع[37]. فهل هذا يعني عدم وجودها في هذه المدينة خلال تلك الفترة. إننا نجد في متانة جسور التواصل البشري و الروحي والثقافي والاقتصادي بين فاس وسلا ما يجعلنا نستبعد فرضية عدم وجود الحلقات بسلا خلا القرن 16/10.

مهما يكن من أمر، فإن ظاهرة الحلقة عرفت كثيرا في سلا خلال فترة الحماية وكانت تستقطب جمهورا واسعا. وساعد على ذلك عاملان: التوقيت الشمسي المعمول به آنذاك عند الحرفيين الذين كانوا يشتغلون من الشروق إلى العصر، وقلة أو انعدام وسائل الترفيه داخل البيت أو خارجه[38]. واشتهرت في سلا ساحتان لعقد الحلاقي: الأولى خارج باب فاس والثانية وسط المدينة في السوق الكبير، وتعمر بين العشاءين وتمتاز حلاقي الليل هاته بطابع الغناء والرقص، لاسيما عندما تقوم"رباعة الروايس" السوسية بزيارة المدينة. إلا أن ألمع نجوم هذه الساحة هو الحسين السلاوي وبوجمعة الفروج ومولاي ابيه[39]. وقد استهل الحسين السلاوي مساره الفني بغناء بعض قصائد الملحون[40]. ثم بدأ في نقل فنون البادية وتقريبها من مجتمع الحواضر الذي بدأ يتطور ابتداءا من الثلاثينيات. لقد تغنى هذا الفنان بجمال طبيعة سلا مثل

[36]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، 1980،ج1، ص: 214.

[37]- نفسه، ج1، ص.ص: 164-165.

[38]- محمد حجي، الحلقة والتسلية الشعبية، ضمن حولات تاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995،ج.2، ص: 715.

[39] - Alaoui Ismail, Salé op.cit, p.150.

[40]- علال ركوك، من ذاكرة الأغنية السلاوية، نموذج الحسين السلاوي، ضمن سلا ذاكرة، م.س، ص: 195.

أغاني "السانية والبير" و"يعجبني شط البحر" و"ما احلى التراها مع الناس لقدام لدوزوا فالدنيا شلا ايام، معاهم نكعد ونحفظ يا سلام"[41].

كان الحسين السلاوي يتغزل بالحاضرات في أزجاله التي يرتجلها وهو يغني ويطوف بالحلقة شبه راقص فتسمعه -مثلا- يقول: "دوك العيون الكوحل"، محدقا في إحدى المتحلقات التي قد تخجل وتنسحب[42]. كما كان يغني أغنية "ازيد شويا أمولاي اليزيد" التي تدخل في عداد الأغاني التي تخدش الحياء[43].

وإذا أمعنا النظر في منتوج الحسين السلاوي نراه يهتم كثيرا بموضوع المرأة كقوله:

سمرا حمورية والشفة العكرية وخدود التفاح

حبها خلاني حاير في التنواح بنت الأندلسية تبرد الجراح

وأغنية "أنا في حماك ألالة هنية " ، ومما يقول فيها:

عييت نسقسي فيك الغوالي الله يهديك يا زينت سميا[44].

ومن أروع أغانيه هي تلك التي تعرض فيها إلى فترة نزول القوات الأمريكية بالمغرب سنة 1942 وما أفرزته من ممارسات جديدة. ومما يقول فيها:

ايا ياي على هاد الزمان وشنو صار

دخلت مركان والناس تقوات والنساء علينا جاروا

حتى من العكيزات داروا النكاب على الشوينكوم ساروا المزوجات داروا سباب على رجالتهم غابوا

.....

شحال من هي معشوقة دارو لها الشان، إلا المركان

41- نفسه، ص: 201.

42- م.حجي، الحلقة، م.س، ج2، ص.ص: 717-718.

43- عبد الله شقرون، طفولة وشباب على ضفاف أبي رقراق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008، ص: 80.

44- انظر نص الأغنية عند علال ركوك، من ذاكرة الأغنية، م.س، ص: 203.

تسمع غير أوكي أوكي هذا ما كان

......

فرقوا الفانيد والسيكار زادو الدولار

حتى من العكيزات الكبار شراو الفولار

حتى من الصغيورات حفظوا اللسان المريكان

تسمع غير أوكي أوكي كمان باي باي

....

شحال من هي معشوقة ولاث باللثام

والصاك أمان مع المركان

ما تسمع غير أوكي أوكي كيف مي دولار[45].

لهذا النص قيمة علمية دسمة لما يحمله من ظواهر طالت المجتمع السلاوي بصفة خاصة والمغربي بصفة عامة ومنها ما يدخل في عداد المسكوت عنه، لاسيما ما يتعلق بعالم المرأة وما لحق به من ممارسات دونية ولا أخلاقية. وتجدر الإشارة إلى أن السلاويين كانوا شغوفين بحلقة الحسين السلاوي ويحسون بفراغ مريع عندما يتغيب عن مدينة سلا . وإذا أشرنا من قبل إلى حضور بعض النسوة في حلقته، فالمرجح أنهن من النازحات إلى سلا، أما السلاويات العريقات فكن يستمتعن بغناء المسمعات .

المسمعات

يقصد بالمسمعات النسوة اللواتي يرددن السماع والذكر في الولائم والمناسبات الدينية في دور السلاويين والزوايا والأضرحة، ويعرفن كذلك باسم المغنيات النقيات. واشتهرت من بينهن في بداية الحماية زايدة وجوهرة وميريكة البراحة وأمة الزرداني[46] وفاطمة داودة والحسونية وللا ضخرة[47].

45- نفسه، ص.ص: 197-198.

46- أحمد الصبيحي، كناش الحسبة، مخ. خ. الصبيحية، رقم 234، ج6، ص: 102.

47- أمدني السيد محمد البوعزاوي بأسماء بعض المسمعات اللواتي كن خلال فترة الحماية بسلا،فإليه مني كامل الشكر.

ويلاحظ أن أغلبهن من الإماء. وكن منضويات في تنظيم شبه حرفي حيث نجد منهن المعلمة مثل زايدة والمتعلمة مثل جوهرة التي أصبحت فيما بعد هي أمينة المسمعات[48]. ويبدو أن هذه المهمة قد أسندت إليها بعد وفاة معلمتها المذكورة.

و لم تسعفنا المصادر التي أمكن الاطلاع عليها في معرفة القدر المالي المحصل عليه من لدن المسمعات مقابل غنائهن. وقد أشارت إحدى النوازل إلى أن من له أمة مغنية في الأعراس والنفاس وغير ذلك من الأفراح فلا يجوز لمولاها أن ينتفع بما في يدها مما يعطاها على ذلك ولا يجوز ولا له أكله[49]. يتراءى من هذه النازلة أن المسمعة الأمة كانت تحصل على أجر معلوم تقدم جزءا منه إلى مولاها .مهما يكن، فإن مثل هذه الجلسات الترفيهية كانت تجد إقبالا من لدن السلاويات. فمنانة حضرية السلاوية التي عاشت- فيما يبدو- في عهد المولى يوسف(1913-1927) كانت من المسمعات تنظم الذكر والمديح وتلقي إنتاجها في مجامع النساء[50]، شأنها في ذلك شأن للا خدوج بنت للا فاطمة القادرية التي كان يجتمع حولها النساء بالزاوية القادرية وغيرها للذكر[51]. وحذت حذوها للا الهاشمية[52]. ويعتبر التوسل بصلحاء سلا من المواضيع التي تفرض نفسها في مثل هذه المجالس. فخلال شهر صفر تجتمع السلاويات بضريح سيدي الهاشمي الطالب لنفس الغاية. ومما تقوله المسمعات:

سيدي أحمد الطالب[53]   قاري وعالم

قاري وعالم يا بابا

سيدي احمد حمداني   كتري ومالي

---

[48]- أحمد الصبيحي، كناش الحسبة، م.س، ص: 102.

[49]- أحمد الونشريسي، المعيار، تح. م.حجي وآخرين، بيروت، 1984،ج.5 ، ص: 188.

[50]- م.الفاسي، شعراء الملحون السلاويون، م.س، ص: 26.

[51]- أبو بكر القادري، الشيخ عبد القادر الجيلاني ودوره في الدعوة الإسلامية في أنحاء العالمين: الأسيوي والإفريقي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص: 364.

[52]- ن.م.س.

[53]- كان أحمد الطالب القصري السلاوي عالما وصالحا.أخذ العلم عن الشيخ محمد (فتحا) بن سعيد العتابي، تلميذ الشيخ عبد الله بن حسون. يعتبر المترجم أول قادم من الطالبين إلى سلا. توفي سنة 1072/ 1662 وضريحه مشهور قرب المسجد الأعظم بهذه الحاضرة.
- الإتحاف الوجيز، م.س،ص ص.121-122..

كتري ومالي يا بابا

ويلا تحضرو تحضر مكة وزمزم   ويلا تغيبو يتغير حالي

ولاد سيدي نظرو من حالي

سيدي أحمد بورقية ضوي عليا   ضوي عليا يازين الحالة

ولاد سيدي نظرو من حالي[54]

ومن نظمهن كذلك:

الله يا الله سهل لي نزورالنبي   أنا والديا واهلي واحبابي

...

ضامن سلا يجيها من بعيد   وجميع من اغتمها ما يمشي سالي

آسيدي الطالب

أنا جيت عطشان   شربت من ورادك

أنا جيت جيعان   وكلوني ولادك

أنا جيت عريان   نعيش من فضالك

.. الله يا الله سهل لي نزور النبي   أنا والديا واهلي وولادي.

ويلا اعطاك العاطي ما زال يعطي   ويلا كلع ليك ما بيدك حيلة

يا اولاد الطالب ما فيكم تالي[55]

إن ما كان يروج في هذه الجلسات الترفيهية مؤشر قوي على توجه السلاويات إلى الغناء النقي لما يحمله من دلالات عميقة تتماشى مع ماضيهن التليد.

الشيخات

"الشيخات" تعني النساء اللواتي يتخذن من الغناء والرقص حرفة، وهي ترادف أحيانا معاني قدحية مثل العاهرات. وتشير الوثائق المخزنية إلى شيخات متميزات كن

[54]- أمدني بها- مشكورا- صديقي الأستاذ محمد أبجاو.

[55]- نفسه.

يزاولن عملهن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لاسيما في مدن فاس ومكناس ومراكش.نذكر منهن: الحاجة فاطمة المعروفة باسم "الحويجة" وطاجينة وأم كلثوم والتونية ومسعودة الرباطية[56]. وليس بأيدينا ما يدل على أن هؤلاء أو غيرهن قد نظمن فرجة بمدينة سلا خلال الفترة المذكورة .أما في بداية الحماية فقد برزت هذه الظاهرة بوضوح في هذه المدينة، وهي تعكس التصدع والتخلخل الذي أصاب نظم وبنى المجتمع المغربي التقليدي في اتصاله مع الأوربيين[57]. وبالطبع،فإن هؤلاء الشيخات ينحذرن من أوساط ريفية وكن في الغالب فقيرات أو مطلقات.كانت هذه الظاهرة –وما تزال- تزعج السلاويين الأقحاح، لاسيما بعد أن تنامت بفعل الهجرة القروية نحو المدن. فلا غرابة إذا أقبل عامل المدينة على تنظيم الفرجة التي نحن بصددها حيث فرض على كل من يرغب في الفرجة بالشيخات ليلا أو نهارا دفع خمس "بساسيط" لصندوق دار الأشغال البلدية بسلا للحصول على الإذن للقيام بذلك[58]. ولم يكن محتسب المدينة، أحمد الصبيحي يسمح بإقامة تلك الفرجات إلا بعد أن تؤدي الشيخات كذلك خمس "بساسيط" على كل فرجة كانت صغيرة أو كبيرة ويدفع هو المبلغ للصندوق البلدي[59]، أي أن هذا الأخير أضحى يجني من كل فرجة بالشيخات عشربساسيط. وقد أشار المحتسب المذكور في تقييد عام 1333/ 1917 إلى أنه لم يقع خلال فترة توليه مهمة الحسبة تنظيم الفرجة بالشيخات[60]. وإذا علمنا أن هذه الفترة امتدت أربع سنوات (1915-1918)، أدركنا قلة إقامة الفرجة المذكورة يومئذ بسلا. ومن غير المستبعد أن الصبيحي –آنف الذكر- كان يسلك شتى السبل لتفاديها باعتبارها لا تتماشى مع أخلاق أعرق الأسر السلاوية..وعلى النقيض من ذلك ،تظهر النوايا الحقيقية لسلطات الحماية، حيث كانت تسمح

---

[56]- كناش الخزانة الحسنية، رقم204، ص: 169.

- فاطمة العيساوي، المرأة والمجتمع 1822-1912 ، أطروحة مرقونة، كلية الآداب، الرباط، 2009 ،ص.ص: 281-288.

[57]- علال ركوك، الشيخات، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2002،ج16، ص.ص: 5443-5444.

[58]- أحمد الصبيحي، كناش الحسبة، م.س، ج.3، ص: 58.

[59]- نفسه.

[60]- نفسه.

للراغبين في إقامة تلك الفرجات بعدم دفع أي مقابل مادي بمناسبات عيدي الفطر والأضحى وعاشوراء والمولد النبوي[61]. ولا يحتاج المرء أن يجشم نفسه عناء البحث عن أدلة تثبت بأن الهدف من وراء ذلك هو ترسيخ التفسخ الخلقي وزرع الفتور الديني بين أهالي المدينة، علما بأن الفرجة بالشيخات لم تكن حكرا على الرجال.بل كانت النساء يتابعن رقصهن وغناءهن انطلاقا من سطوح المنازل أو من الصفوف الخلفية وراء الرجال. وبخلاف الحلقة، فإن المرأة كانت هي صاحبة المبادرة في الممارسة الفرجوية. و لم تجد مصادرنا-كما أسلفنا- بأسماء بعض الشيخات اللواتي كن يقمن الفرجات بمدينة سلا. ولا ندري هل تم جلب من أشرنا إليهن من شيخات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أم تمت المناداة على اللواتي اشتهرن في العقد الثالث من القرن الماضي مثيلات: البوكدراوية والزرروقية والعرجونية وغيرهن[62]. وإذا لم نقف على القدر المالي الذي يقدم للشيخات مقابل أداء مهمتهن، فقد أفادنا أوجين أوبان بأن الدخل السنوي للشيخة بريكة تراوح سنة 1903 ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ريال[63]. ويمكن تلمس أهمية هذا المبلغ المالي من خلال الاستئناس بمقارنته –مثلا- بالقيمة التجارية لرؤوس قطيع البقر.فقد بيع ثور أحمر بسوق الخميس بسلا بتاريخ 24 جمادى الثانية 1333/9 ماي 1915 بسبعة وستين ريالا[64]. وحسبما يلاحظ من المقارنة، فإن ما كانت تجنيه الشيخة المذكورة من الغناء والرقص هو قدر مالي له بال يومئذ. ويبدو أن الشيخة المسؤولة عن الفرقة والتي تسمى الطباعة، أي التي تطبع-تدشن- وجبة العمل وتنهيها وتتصرف حسبما تتطلبه ظروف عملها[65]، يبدو أن ما كانت تحصل عليه من مقابل مادي يفوق حصص الأخريات.

61- نفسه.

62- ع.ركوك، الشيخات، م.س، ج16، ص: 5444.

63 - Eugène Aubin, Le Maroc d'Aujourd'hui, Paris, Librairie Armand Colin; 1912, p: 347.

64- رسم عدلي بتاريخ 24 جمادى الثانية عام 1333/9 ماي 1915 (وثيقة خاصة بحوزة أسرة امسطس الحصيني).

65- ع. ركوك، الشيخات، م.س، ج.16، ص: 5444.

ولا يمكن الحديث عن غناء الشيخات دون الإشارة إلى غناء فئة أخرى من نساء سلا وهن المومسات. وغير خاف، أن التدخل الأجنبي أدى إلى ظواهر طالت المجتمع السلاوي منها تدني القيم الأخلاقية. ويمكن استجلاء ذلك من خلال ما كتبه محتسب المدينة، أحمد الصبيحي إلى رئيس المجلس البلدي بها بتاريخ 22جمادى الأولى عام1333/ 4 أبريل 1917، مذكرا إياه بأن أهل سلا طالما ترددوا عليه في الشكاية حول مسألة امتلاء المدينة بالباغيات في الفنادق والأسواق العامة حيث كثرة المارين الذين يسمعون غناءهن ورقصهن وبين الديار أيضا حيث يسمع الجيران ضجيجهن[66]. تظهر هذه الرسالة أمرين:أولهما هو حضور غناء المومسات ورقصهن ببعض فنادق سلا. وإذا لم يفصح مصدرنا عن نوع غنائهن فيبدو أن الأمر يتعلق بمقطوعات من بعض العيوط وأن كل واحدة منهن تعطي طابعا شخصيا لغنائها ورقصها. أما الأمر الثاني فهو استفحال الرذيلة بسلا، الشيء الذي كان يرفضه السلاويون رفضا باتا. فعبارة "امتلاء المدينة بالباغيات" دليل على أن هذا الداءانطلق مع احتلال المستعمر للمدينة سنة 1911. وقد ألح السلاويون على وجوب تطهير المدينة من وجود الباغيات بين ظهرانيهم،مما يفسر إقدام رئيس المجلس البلدي على جمع هؤلاء المومسات بمحل في طرف المدينة بعيدا عن الأسواق العامة والديار[67]. ومما لا شك فيه أن هذا الإجراء لم يرض السلاويين الذين كانوا يرمون من وراء حركتهم الاحتجاجية قطع دابر الفساد بمدينتهم.و لم نقف على مكان تجميع المؤسسات بسلا وإن كنا نرجح أن الأمر قد تم في أحد الفنادق الموجودة قرب باب فاس أو باب سبتة لكونهما بعيدين عن نواة المدينة التي تقطنها أعرق الأسر السلاوية المعروفة بشدة تدينها وحيائها. مهما يكن،فإن هذا الإجراء الترقيعي يجسد بوضوح النوايا الحقيقية للمحتل الأجنبي الذي بذل قصارى جهده في زرع بذور الفساد في البلاد لا خدمة العباد. وتتضح الصورة أكثر في الثلاثينيات من القرن الماضي حيث رخصت سلطات الحماية في فتح دور

66- أحمد الصبيحي، الحسبة، م.س، ج3، ص: 58.

67- نفسه.

للبغاء في فندق لاركوجي بارمادة حشرت فيه بنات الهوى يشاهدن من ثقوب الباب وهن يغنين ويعاقرن الخمر ويشربن الدخان وسط جنود من اللفيف الأجنبي ومن الطبقة المتدنية من الأفارقة[68]. هكذا، إذا عرفت مدينة سلا المغنيات النقيات وأنها مهد السماع، فقد اندس بين ظهراني أهلها غناء الشيخات والمومسات، الشيء الذي لم يكن ليرضي ساكنتها. وحتى بالنسبة للغناء النقي، ينبغي ألا نتوهم أن ذلك لم يجد معارضا في سلا، وهي المدينة التي عرف أهلها-كما أسلفنا- بشدة تدينهم والمحافظة على مكارم الأخلاق. فالفقهاء، عموما، يجنحون إلى إنكار السماع "لأن أكثره لهو ولعب. أما الغناء المجرد من الآلات فهو على الجواز في أصله لأنه يرجع إلى الإنشاد "[69]. ويلاحظ أن المولى سليمان قد استنكر ذلك جملة وتفصيــلا إذ "ليس في دين الله ولا شرع نبيه أن يتقرب إلى الله بغناء أو شطح" [70]. لقد جاء هذا الاستنكار ليكشف عن رغبة جامحة لدى السلطان في إيقاف بعض الانحراف لدى الطوائف الدينية. ومن ثم، لم يقف -فيما يبدو- موقف المعارضة من السماع.

وصفوة القول، فإن عراقة الموسيقى والغناء بسلا لا يختلف فيها اثنان. وتبين طقوس أفراح السلاويين على نحو واضح أنهم ظلوا متشبثين بإرثهم الحضاري عن طريق حرص السلف على تكوين الخلف، رغبة في الحفاظ على التراث الحضاري وترسيخه. بيد أن معلوماتنا ما تزال ناقصة حول تراجم أهل هذا الفن وإنتاجهم الفكري خلال القرن الثاني عشر/18م وما قبله. كما أن مصادرنا تظل خرساء عن الإجابة عن واقع التسلية الشعبية بسلا قبل فترة الحماية. لذا، نأمل أن يتم نفض الغبار عن ذخائر الخزانات الخاصة بهذه المدينة وتمكين الباحثين من الاطلاع عليها ودراستها حتى يتسنى لهم ملء الثغرات الموجودة في تاريخ هذه المدينة المجاهدة.

---

[68]- قاسم الزهيري، المجتمع السلاوي في الثلاثينيات، ضمن الندوة العلمية للعدوتين، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1994،ج1، ص: 139.

[69]- الحسن اليوسي، رسائل اليوسي، الرسالة الثالثة عشرة، تح. فاطمة القبلي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، ج2، ص.ص: 430-435.

[70]- انظر نص رسالة المولى سليمان إلى أرباب الطوائف عند: الزياني، الترجمانة الكبرى، تح.عبد الكريم الفيلالي، الرباط، 1967، ص: 466.